رحلة الحجاز *

٤

السفر الى مكة المكرمة

في صبيحة يوم السبت سافر ركب المحمل المصري من جده قبل شروق الشمس وفي ضحوته سافرت الوالدة والشقيقة ومعهما الصديق الكريم الشيخ خالد النقشبندي والصهر الحميم محمد نجيب أفندي وقد استأجرنا لهم أربعة جمال بجنيهين اثنان للركوب واثنان لحمل المتاع (العفش) وأرسلت حكومة جدة معهم جنديان عربيان من جنود الشريف الهجانة للحفارة وزودهم صديقنا ومضيفنا الشيخ محمد نصيف بأنفس الزاد الكافي . وتأخرت عنهم لاتمام ما كنت بدأت به من كتابة نبذة من التفسير للمنار لارسالها مع البريد من جدة مع كتابة مالا بد من كتابته الى مصر . ثم سافرت بعد صلاة العصر من هذا اليوم على حمار استأجرته بمئة قرش عما ني ولم أكد أظفر به لولا مساعدة الاصدقاء لان المغاربة والمصريين قد سبقوا الى استئجار جميع حمير البلد أو أكثرها . وسافر معي جنديان من هجانة العرب بأمر الحكومة لاجل التكريم لا الحفظ فانها واثقة بامن الطريق ، وركب معي الشيخ محمد نصيف والشيخ مساعد اليافي مدير الشرطة في جدة و بعض الاصدقاء مشيعين مودعين ثم عادوا عند غروب الشمس الى جدة وقد زودني الصديق المضيف بالزاد النفيس الكافي كما زود الآل والصحب واختار لي شابا نشيطا من أهل جدة للخدمة في الطريق وأخذ الحمار في مكة وأدركنا في الطريق أحد الحجاج المصريين على حمار فرافقنا .

العناية بامر الماء في السفر

ولم أهتم لنفسي الا بملء إبريقي المعدني الذي يحفظ مايودع فيه من بارد وحار زمنا طويلا بقطع الثاج وملء قربة من الماء النقي . ذلك بأني أعنى بأمر الماء مالا أعنى بأمر الطعام ولا سيما في السفر ، ولا يشق عليّ فقد شيء من طيبات الدنيا

*) تأخر نشره بغير تعمد

التي اعتدتها الا الماء البارد النقي . وهذا الابريق من نوع الروايات (أوعية الماء للسفر) الافرنجية التي يسمون واحدها (ترموس) وأكثر هذا النوع عمودي الشكل وهو يحفظ ما يودع فيه من بارد وحارّ يوما وليلة بالتقريب، وأبريقي الذي ذكرت يخالفها في الشكل والجودة فهو نوع جيد يحفظ الثلج أو الجليد عدة أيام لا يذوب منه الا القليل وقد ملأته بالثلج مرة في طرابلس الشام وسافرت قاصدا مصر فبت في بيروت ليلتين وفي البحر ليلتين بعدها لم أحتج فيها اليه لاني أعده لشرب الليل والماء المثلوج متيسر في الباخرة عامة النهار وناشئة الليل، وقد اتفق ان كان منزلي (القمرة) من الدرجة الاولى بجانب مستودع الماء المثلوج للباخرة ، وفي ضحوة اليوم الخامس نزلنا في محجر الاسكندرية الصحي فتعاهدت الابريق فاذا بالثلج فيه لم يذب الا بعضه . وقد كان هذا الابريق هدية من سلطان مسقط السابق السيد فيصل رحمه الله تعالى — ولم أر هذا النوع الا عنده أهداه الي عند سفري من مسقط سنة ١٣٣٠ اذ رأى أتني حين كنت في ضيافته لم أسأل عن شيء الا عن الماء المثلوج. وكان عنده آلة لصنع الثلج ولكنها كانت معطلة في فصل الشتاء وكان وصولي الى مسقط في أول فصل الربيع والشمس في برج الحمل (شهر ابريل — نيسان) فأمر باصلاح الآلة واستعمالها قبل الموعد المعتاد عندهم لاجلي ، ووضع عندي في دار الضيافة إبريقا من هذا النوع الذي نتكلم عنه ليتيسر وجود الثلج عندي في كل ساعة من الليل والنهار، ولما سافرت وجدت مع متاعي في الباخرة إبريقا آخر منه جديدا لم يستعمل من قبل، فاستفدت منه في سفري ذاك ، وكان أكبر نفعه في السفر من البصرة الى بغداد في شط العرب ودجلة اذ قل الثلج في الباخرة بين العمارة وبغداد ثم نفد، ثم في السفر من بغداد الى حلب، ولا يوجد الثلج بينهما الا في مدينة دير الزور وهي بين العراق وسورية، وكان شأننا في تدبير ماء الشرب في ذلك الطريق — الذي قطعناه في ١٨ ليلة في مركبات (عربات) سفرية تسير على ضفاف الفرات لا تبعد عنه في بعض الاحيان الا قليلا — اننا كنا كلما نزلنا منزلا في المساء نبادر الى تقطير الماء في قدور من الفخار ثم نبرده بهواء الليل الجاف البارد في أكواز (قلل) الماء البغدادية وفي قلة معدنية مغشاة بقماش يبلل بالماء فيبرد المعدن بضرب الهواء له ويبرد الماء

برده ، — وهذه القلة أهداها الي الطبيب النظامي محمد عبد الولي في مدينة لكهنو بالهند — وكنت قبل الادلاج في آخر الليل املأ الابريق المعهود من هذا الماء وترمسا آخر عموديا من النوع المعروف لكثرته في هذه البلاد كان أهداه الي صديقي السيد يوسف الزواوي أكبر نمروات مسقط بمد بيت السلطان فيها ،فكنت أشرب في بكرة النهار من هذا وأدخر ذاك الى العشي لانه أحفظ والتغير فيه أبطأ ، وقد انكسر العمودي معي في حماه ، ولا أسف عليه لان مثله كثير ، الا أنه أثر من صديق ، ثم انكسر الاول فى مصر فآلمني كسره لطرافته وفائدته ولكونه أثرا من ذلك السلطان الكريم سقى الله لحده ، ولكن نجله البر الوفي صديقي السيد نادر قائد الجيش الاول لسلطنة مسقط أهداه الي أبريقا آخر عوضا عنه ، وهو الذي كان معي في الحجاز وكان ما حملت فيه من الثلج كافيا لي بين جدة ومكة الآن ماء قربة الجلد تغير في الطريق لانها كانت بعيدة العهد بالاستعمال

وسبب حفظ الترمس لما يودع فيه مدة طويلة هو انه مؤلف من أنائين أحدهما وهو الظاهر معدني وثانيهما زجاجي باطنه كالمرآة وظاهره مغشى بمادة من المواد البطيئة التوصيل للحرارة والبرودة ويوضع الزجاجي في باطن المعدني منفصلا عنه ويكون الاتصال بينهما من أعلى الفوهة ولهذه الفوهة صمام (سداد) من الفلين على رأسه قطعة من معدنه الابيض ويكون فوقها غطاؤه المعدني المتصل به ، فاذا رفع الصمام قليلا أمكن صب الماء من بلبل الابريق

أطلت في مسألة الماء ليستفيد مما كتبت من يعنون بأمر صحتهم ورفاهتهم في السفر . والعناية بأمر الماء محمودة بل ضرورية ، فالماء الرديء يكون سببا لامراض كثيرة ، إذ الماء يحمل من جراثيم الامراض والاوبئة مالا يحمل غيره . وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأكل ما وجد ولا يذم طعاما ولكنه لم يكن يشرب من كل ماء يوجد بل كان يستعذب له الماء من آبار السقيا وهي على مسافة يوم من المدينة أو أكثر ، وكان أحب الشراب اليه العذب البارد . والماء الذي يوجد بين جدة ومكة في القهاوي — أي الاكواخ التي يأوي اليها المسافرون للاستراحة وشرب القهوة والشاي — كله قذر فلا أصله جيد ولا أوانيه نظيفة ، وماء (بحرة) التي ينزل فيها

جميع الحجاج للاستراحة رديء غير عذب . ويقال ان بالقرب منها بئرا لا بأس بمائها ولكن لا يسهل الا على الاقلين الوصول الى شيء منها . فمن الضروري للمسافر الذي يعنى بصحته ان يحمل مايكفيه من الماء بين جدة ومكة في سفره من كل منهما الى الاخرى . والشقادف قلل من الفخار يربطونها في مؤخرتها فيكون ماؤها مقبولا ولا سيما في الليل

القهوات في طريق مكة والدكرور

نزلنا بعد المغرب في أول قهوة من القهوات التي أشرنا اليها آنفا فأذنت وصليت المغرب والعشاء جمعا وقصرا وصلى معي الرفاق وشربت الماء المثلوج وشرب الرفاق القهوة و بعد أن استرحنا قليلا أعطيت صاحب القهوة عنهم أضعاف المعتاد فدعا لنا ، وركبنا حمرنا وركب الجنديان هجانهما وسرينا لا نرى من الحجاج في الطريق الا سودان الدكرور مشاة على أرجلهم رجالا ونساء وأطفالا يحمل الرجال حرابهم والنساء أطفالهن على ظهورهن وما لديهن من المتاع والزاد على رؤسهن ، وكنا نرى بعضهم نياما على جانبي الطريق ، فهم ينامون اذا تعبوا فاذا استيقظوا في أي ساعة في ليل أو نهار مشوا لا يخافون اللصوص ولا قطاع الطريق ، وقد قيل لنا انه لا يتعرض لهم أحد بسوء ، لانه لا يكاد يوجد معهم شيء له قيمة ينتفع به اللصوص من الاعراب هنالك فأكثرهم عراة لا يملكون من اللباس مايزيد على ستر العورة ولباس جميع رجالهم ونسائهم الابيض وهم مع ذلك يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال بحرابهم السودانية فلا يستهان بهم مع كثرتهم ، فانهم منتشرون طول الطريق لا تبعد ثلة منهم عن أخرى الا قليلا ، واللصوص قلما يكونون كثيرين الا اذا كانوا يقصدون سلب القوافل الكبيرة

أمن الطريق وحادثة اعتداء

وقد كان الطريق في هذا الموسم آمنا مطمئنا لم يبلغنا أنه وقع فيه اعتداء على أحد الا ما حدث بالقرب منا فاننا سمعنا قبل انتهاء الثلث الاول من الليل صوت طلق رصاص استفز الحارسين اللذين معنا فسألتهما ماهذا ؟ قالا « قوم » وهم يعنون بكلمة القوم اللصوص وقطاع الطريق ، وأشارا علينا بأن نسرع في السير ما استطعنا

ونقصد قهوة كنا نرى ضوءها فننزل فيها ، وتركانا مسرعين بهجانهما الى الجهة التي سمع منها صوت الرصاص، وطفقنا نحن نلكز حمرنا مسرعين بها الى تلك القهوة فبلغناها بعد جهد وعناء فاسترحنا فيها ساعة وشرب رفيقاي الجندي والمصري الذي الفيناه في الطريق الشاي ورأينا هنالك أناسا من الفقراء يطلبون من القهوة طعاما . ثم جاء الجنديان مع رجل آخر . فأخبرا أن القوم (قطاع الطريق) الذين سمعنا صوت رصاصهم قد شردوا بعيرين للرجل الذي عاد معهما ولرفيق له وكانا عائدين من جدة بعد بيع ما كانا حملاه اليها وان خفراء الطريق ما زالوا يقتفون أثرهم ، وقال الرجل انه لم ير هو ورفيقه الا لصا واحدا ولكنه مسلح وهما أعزلان

النزول ببحرة

و بعد استراحة الجنديين وشربهما الشاي أكرمت صاحب القهوة واستأنفنا السرى فبلغنا (بحرة) في منتصف الليل تقريبا ورأينا أنوار ركب المحمل المصري بالقرب من الخصاص التي يأوي اليها الحجاج وغيرهم من المسافرين. والخصاص جمع خص وهي البيوت من عيدان الاشجار أو القصب أو غيره من النبات، وهي هنالك كثيرة تسع الالوف الكثيرة من الناس وعلى جانبي الطريق سوق منها فيه الحوانيت والقهوات وان شئت قلت الخانات أو الفنادق لايواء المسافرين فيجد المسافرون فيها الماء والخبز واللحم والبيض وأنواعا أخرى من الاغذية وقهوة البن والشاي ، والموسرون من المسافرين قلما يحتاجون الى شيء منها لانهم يحملون زادهم من جدة أو مكة لعلمهم بأن مايوجد هنالك غير نظيف ولا جيد . والخصاص التي وراء هذه السوق التي في الطريق العام عبارة عن دور يتألف كل منها من عدة بيوت يمكن ان يجعل بعضها للنساء و بعضها للرجال ولها مراحيض وراء المساكن . وقد نزلنا في قهوة كبيرة كنا أوصينا بالنزول فيها فاسترحنا فيها ساعتين كاملتين وكنا قد جعنا فأكلنا مما نحمل من لحوم الضأن والدجاج والسمك والخضر والحلوى والفاكهة وشربت الماء المثلوج وحمدت الله تعالى حمدا كثيرا . وأحببت أن أعرف أين نزل جماعتنا فتعذر علي ذلك

السرى من بحرة ومسألة أمن الطريق

ولما اردنا استئناف السرى استأذني الجنديان في البقاء ببحرة لانهما يريدان

العودة صباحاً الى جدة ، وجاءاني بجنديين عربيين من المشاة فقالا هذان من جنود سيدنا الموكلين بحراسة الطريق وهما يقومان مقامناء فسرينا ومشيا امامنا يحمل كل منهما بندقية من الماوزر على كتفه شادا منطقة من رصاصها المنضود في وسطه وهو حافي القدمين ليس عليه الا قميص قصير فسألت أحدهما عن أمن الطريق فقال ان الامن تام ولا خوف عليكم في الطريق ، قلت أرأيت اذا هجم علينا قوم كثيرون فاذا تغني عني أنت وصاحبك ؟ قال ان القوم الكثيرين لا يعتدون على الافراد أو الجماعة القليلة من المسافرين وانما يقصدون القوافل الكبيرة التي تحمل مايحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، والقوم القليلون لايتجرءون على جنود سيدنا وان كانوا أقل منهم ، وفي الطريق على طوله مخافر متقاربة يمكن ايصال أنباء الاعتداء من بعضها الى بعض بسهولة . وحقا ما قال فانا كنا بعد مفارقة جدة بقليل نرى تلك المخافر على جانبي الطريق وكثير منها في الروابي والهضاب وهي كثيرة متقاربة ، وكان هذان الجنديان كلما أبصرا أحدا في الطريق على مقربة منا أسرعا اليه قبل وصوله الينا وعرفا حاله . وقد رأينا في طريقنا قبل بحرة وبعدها كثيرا من القوافل قاصدة جدة اما من مكة واما من الطائف وهي التي تحمل الفاكهة كالرمان والعنب والسفرجل ، ورأينا ايضا كثيرا من الافراد والجماعات يقصدون جدة . وفي أثناء الساعة الثانية وصلنا الى قهوة استرحنا فيها قليلا واستأذنتي الجنديان بالتخلف وأوصيا جنديا كان هنالك بان يصحبني الى مكة ، وكانت المسافة قد قربت وعلمت منهما انهما جائعان وليس معهما شيء فأعطيتهما ما تيسر من الدراهم

ثم أدلجنا وسألت الجندي عن حال الامن في تلك البقعة فقال ان هذه الارض أرض هذيل الذين أنا منهم وهم لايسرقون ولا يعتدون على أحد وان ماتوا جوعاً بل يعيشون بمواشيهم وانما اللصوص وقطاع الطريق هم عرب الشمال . وبعد ان أصبحنا وصلنا الى مكان فذكر لي حادثة من الحوادث المثبتة لامانتهم قال مات في هذا المكان رجل من حجاج المغاربة يظهر انه كان مريضا فتعب في الطريق فتحول عنه الى هذا المكان للاستراحة فمات فيه وكان له ولد منفرد عنه وصل مكة فلم يجد والده فعاد ينشده في الطريق وكان بعض عربنا قد رأوا الميت ووجدوا معه كيسا

كبيرا فيه نقود كثيرة فحفظوه ولما رأوا الوالد دلوه عليه و[illegible] ه نقوده وأعانوه على دفنه ولم يأخذوا من الكيس شيئا بل شاءوا لاخذ[illegible]

وجملة القول ان العناية بحفظ الامن في هذا [illegible] كانت كبيرة واني لم [illegible] من أحد من الحجاج شكوى اعتداء على نفس ولا مال ، ولكن حدثتني الوالدة بعد الوصول الى مكة المكرمة انه عرض لهم في الليل رجل ادعى أنه من الحجاج المصريين من المنصورة وأنه فقير لم يجد ما يركبه وكان يحاول أن يركب البعير الذي عليه اسفاطنا وصناديقنا فينهره أحد الجنديين اللذين معهم بالكلام فيتحول قليلا ثم يعود ، ولم ينصرف حتى هدده بالضرب واتهمه بأنه يريد ان يركب البعير ليشرده ويذهب به وأنه لا بد أن يكون له رفاق ينتظرونه . ويجوز ان يكون الرجل صادقا ولكن اساءة الظن في هذا المقام من الفطنة . والفضل الاول في هذا الامن الذي لم يسمع بمثله منذ قرون لشخص الشريف الحسين بن علي . (١) وقد كان السيد الزواوي قال لي منذ بضع سنين أنه لم ير أقدر من هذا الامير على حفظ الامن في الحجاز كله وسياسة العرب فيه

بحث لغوي في الحجر والفهر والصخر

لم أستفد من حديث هذا الاعرابي الجندي ولا من حديث من قبله فائدة لغوية تذكر على أني اكثرت من الكلام مع هذا ما لم أكثر مع الآخرين ورأيته أفصح منهم وذكرت له أبياتاً من الشعر العربي فرأيته لا يفهم جميع مفرداتها ، ولكنه امتحنني بالسؤال عن شيء أبيض في الجبل — ولون الجبل أسود بل أصهب — قلت أي شيء هو ؟ قال ماهو مثل الشاة ؟ — والغنم هناك أبيض اللون — قلت نعم . قال هذا فِهر . وأقول إن المشهور في كتب اللغة ان الفهر الحجر الصغير الذي يؤخذ باليد ويدق به الجوز ونحوه ، وقال بعضهم الذي يملأ الكف ، وذلك الحجر كبير لا يمكن رفعه بيد واحدة ولذلك رجعت الى معاجم اللغة فرأيت في لسان العرب بعد تعريفه بما ذكرت آنفا « وقيل هو الحجر مطلقا » ومن العجيب انه قد فسر هو والفيروزبادي الحجر بالصخرة ، والصخرة بالحجر العظيم الصلب . وهو تساهل أو تقصير في تحديد المعاني . والصواب ان الحجر اسم جنس لهذه الاجسام المعروفة

(١) نبهنا قبل على ان حوادث الرحله حدثت قبل المبايعة بالملك فبقى التعبير فيها على ما كان عندوقوعها

يطلق على صغيرها وكبيرها وعلى الصلب الشديد اليبوسة منها وغيره . وقالت العرب : استحجر الطين أي يبس فصار حجرا . والصخر ماعظم من الحجارة واحدته صخرة والحصى صغار الحجر واحدتها حصاة وجمعها حصيات وحُصيّ . قالها ابن سيده في المخصص ، وهذا ما يفهمه جميع الناطقين بالضاد من معنى الحجر والصخر والحصى. وقول اللسان في الفهر « وقيل الحجر مطلقا » على ضعفه لا يؤخذ على اطلاقه والذي ظهر لي من نقول أهل اللغة ومن كلة الاعرابي الهذيلي ان أكثر العرب كانت تطلق الفهر على الحجر الذي يؤخذ باليد الواحدة للدق به والكسر أو الحذف والرجم، وقليل منهم أطلقه على ما يؤخذ بكلتا اليدين لدق شيء أو ضرب به ، وأكثر العرب تؤنث الفهر ، وورد تذكيره في حديث حمالة الحطب فانها أخذت فهرا وجاءت لتضرب به النبي (ص) فلم تره فقالت لابي بكر (رض)— وهو معه —: لو وجدت صاحبك لشدخت رأسه بهذا الفهر . نقله شارح القاموس بهذا اللفظ عن الروض. قال صاحب الهمزية :

وأعدّت حمالة الحطب الفهـ　　ـر وجاءت كأنها الورقاء
يوم جاءت غضبى تقول أفي مثـ　　ـلي من أحمد يقال الهجاء
وتولت وما رأته ومن أيـ　　ـن ترى الشمس مقلة عمياء

قهوة سالم

وقد بلغنا قهوة سالم مصبحين وهي في حدود الحرم على مقربة من مكة — وكنا مررنا ليلا بالعلمين المنصوبين لحدوده - فصلينا فيها صلاة الفجر ثم لم أملك نفسي من التعب والنعاس ان اضطجعت فنمت حتى طلعت الشمس . وكنت عازما على الاغتسال في هذه القهوة لدخول مكة عملا بالسنة وسألت في جدة وفي الطريق عن مكان يمكنني أن اغتسل فيه فقيل لي قهوة سالم ، ولكني خشيت على نفسي المرض من الاغتسال وقتئذ بالماء البارد مع شدة الاعياء فاكتفيت بالوضوء. ورأيت أن أمشي ميلا أو ميلين لتلين عروق رجلي ووركيّ وأعصابهما المتيبسة من طول الركوب الذي طال عليّ عهده ففعلت وضايقني دخول الرمل في نعلي فمشيت حافيا ضاحيا (أي بارزاً للشمس) كسودان الدكرور الذين كنت أراهم أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي منذ خرجت من جدة الى ان دخلت مكة

أسرى الترك

ولما قربنا من مكة وظهرت لنا ضواحيها رأينا أسرى الترك الذين أسرهم العرب في الطائف خارجين منها مشاة في الطريق اليسرى مرسلين الى جدة يخفرهم قليل من الجنود الاعراب ، وفي اليوم الثاني من دخولنا مكة رأينا فيها ضباطهم ركوبا على الابل متلفعين لاترى الا أعينهم وأنوفهم وهم مرسلون الى جدة يخفرهم قليل من جنود الاعراب المجانة وكان قد بلغنا في جدة خبر فتح الشريف الامير عبد الله للطائف بعد ان حاصرها عدة أشهر وتسليم قائد الحامية التركية غالب باشا الذى كان والي الحجاز له

وفد الامير لاستقبال العبد الفقير

ولما بلغنا قهوة المعلم وهي آخر قهوة بين جدة ومكة رأيت صديقنا الأستاذ الكبير السيد عبد الله الزواوي مفتي الشافعية بمكة المكرمة مع بعض ولده و بعض المكيين فأقبل لاستقبالي ونزلت عن دابتي فتعانقنا وتصافحنا وجلسنا للاستراحة و بعد السلام قال لي ان هذا الوقت هو وقت دخول سيدنا الشريف عبد الله نجل سيدنا الامير مكة قادما من الطائف بعد ان تم فتحها على يديه وقد أعد له احتفال كبير وخرج سيدنا بجميع الشرفاء والوجهاء ورجال الحكومة الى خارج البلد لاستقباله، ولما علم بأن قدومك يتفق في هذا الوقت أوفدني من قبله لاجل استقبالك وأرسل اليك بغلته هذه مع من ترى من حجاب سيادته لتدخل عليها مكة - وأشار الى بغلة دهماء مشدودة مع حاجبين أبيضي اللون بثياب حمر كالثياب التي يلبسها قواسة وكلاء الدول - ولو جئت قبل هذا الموعد لرأيت من العناية باستقبالك مايسرك ولكنت معنا الآن في استقبال صديقك سيدنا الشريف عبد الله ، ولدخلت بك مكة من الطريق التي دخل منها سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقابلت هذه العناية الهاشمية بالشكر والثناء وخالص الدعاء

هذا وانني كنت عازما عند الوصول الى جدة ان أكتب الى هذا الصديق الوفي أكلفه أن يستأجر لي ولمن معي داراً ننزل فيها ولكنه كلمني بالمسرة (التلفون) من مكة فقال ان سيدنا الامير أعزه الله قد أمر باعداد منزل لك مؤلف من دائرتين احداها للرجال والاخرى للنساء وفيه جميع ما يحتاج اليه من الاثاث والماعون والخدم وهو بقرب الحرم الشريف . وعلمت من هذا الصديق انه كان يتمنى أن ننزل في داره

ضيوفا عليه لو لم يتفضل (سيد الجميع) بتشريفنا بضيافته السنية الهاشمية

وقد تذكرت الآن - والشيء بالشيء يذكر - ان صديقي السيد يوسف الزواوي كبير تجار مسقط وسرواتها - الذي مر ذكره في هذه الرحلة وهو من آل هذا البيت - كان قد كتب الي وأنا في بمباي ثغر الهند الاول سنة ١٣٣٠ يقول انه بلغه انني عازم على زيارة مسقط ويدعوني الى النزول في داره ولم يكن يعلم أن سمو سلطانها السيد فيصل رحمه الله وطيب ثراه قد أمر مندوبه في بمباي بدعوتي الى ضيافته وبأن يخبره عن يوم سفري بالبرق (التلغراف) فلما جئت مسقط ونزل السيد الى الباخرة مع من نزل من ولد السلطان وحاشيته في زورقه البخاري لاستقبالي فيها أخبرني بما كان تمناه واستعدله من حسن الضيافة لولا ان سمو السلطان نفس عليه بذلك وقال له أنت تنتظر مثل قدوم فلان على بلادنا وتريد ان تستأثر بضيافته من دوننا ؟ ولكن السيد يوسف أحسن الله اليه أدب لي مأدبة عظيمة في نفس مسقط دعا اليها جميع كبرائها ووجهائها ومأدبة أعظم وأفخم منها في دار له بمزرعة في ضواحي مسقط دعا اليها كبراء مسقط ووجهاء البلاد المجاورة لها حضرها عشرات منهم فقضينا معهم يوما كاملا من أطيب أيام الحياة ذكرناهم فيه بآيات الله فألفينا آذانا صاغية وقلوبا واعية . وكذلك الاستاذ السيد عبد الله حياه الله تعالى فانه أدب لنا عدة مآدب فخمة ، حضر بعضها أهل العلم والوجاهة من حجاج المغاربة ، وسيجيء ذكر هؤلاء المغاربة في هذه الرحلة

﴿ دخول مكة المكرمة والطواف والسعي ﴾

بعد ان استرحنا قليلا ركبت البغلة التي تفضل بارسالها الي سيدنا الامير ، ومشى أمامي حاجباه وركب السيد الزواوي فرسه الأتية السير ونجله السيد عبد الرحمن دابته وسارا الى جانبي ، وركب مطوف بلدنا (طرابلس الشام) الشيخ محمد الحريري ونجله دوابهما وساروا وراءنا ، فلما دخلنا مكة ومررنا في أسواقها جعل الناس يقومون على الجانبين تكريما لمن كرم أميرهم ومقدم من المملكة ، وان كانوا لا يعرفون شخصه ولا صفته ، حتى اذا ما بلغ السير بنا بيت الله الحرام ، دخلناه ومررنا فيه من باب

بني شيبة (١) حيث دخله سيد الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلما وقعت العين على الكعبة المعظمة ، التي كساها الله تعالى حلل المهابة والعظمة ، قلت كما كان يقول عمر بن الخطاب عليه الرضوان : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام . وقفيت على ذلك بالدعاء الذي ورد ، وان لم يصح به السند ، : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما وبرا .

وطفت طواف القدوم والعمرة سبعة اشواط ، وطاف معي مطوفنا رافعا صوته بما يحفظه من الثناء والدعاء — وهو ما اعتاد المطوفون تلقينه للحجاج — وأنا أدعو وأثني بما أعلم وما ألهم . وقد ذكرني المطوف بما كدت اذهل عنه من الرمل في هذا الطواف ، وما يسن فيه من كشف المنكب الذي يكون بالاضطباع ، وبعد الطواف صليت ركعتين وشربت من ماء زمزم ، ثم خرجت من باب الصفا لاجل السعي بين الصفا والمروة ،

كنت أحب أن أطوف بالصفا والمروة ماشيا ولكن السعي بينهما سبع مرات عبارة عن قطع ثلاثة كيلو مترات مشيا وذلك ما كنت أعجز عنه في ذلك الوقت لما عرض لوركي من التعب والالم من الركوب عامة الليل على حمار غير فاره لولا الإشناق له طول الطريق لخر بي مرارا ، وكم ثنى ركبتيه للركوع ، ومنعه جذبي الرسن من السجود ، فسعيت راكبا على البغلة وهو جائز ورملت بها في موضع الرمل وهو ما بين الميلين (العمودين) الاخضرين الناتئين من جدار الحرم . وقد بينت في المناسك ان جميع مناسك الحج قد شرعها الله تعالى على لسان ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام الا الرمل في الطواف والسعي فانه من آثار نبينا صلى الله عليه وسلم فعله مع الاضطباع وهو عبارة عن كشف المنكب الايمن واظهاره ليظهر قوة المسلمين للمشركين في عمرة القضاء ، اذ كان بلغه انهم قالوا ان محمدا وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال ، وكان بلغه عنهم في الحديبية انهم قالوا

---

(١) هو الآن في صحن الحرم كأنه قوس منصوب وبقابله في جدار الحرم الشرقي بابان يسمى أحدهما باب العباس والثاني باب علي وفي وسط هذا الجدار الباب الذي يسمونه باب النبي (ص) يليه في الجانب الشمالي باب السلام الذي يدخل منه أكثر الحجاج

في المؤمنين : أوهنتهم حمى يثرب

وبعد السعي عدت الى دار السيد الزواوي إجابة لدعوته فمروا بي من طريق آخر وحجاب الامير أمامي والكثيرون من الناس يقفون في دكاكينهم وفي الطريق من الجانبين فأحييهم بالسلام وبالاشارة حتى اذا ماجئت الدار أعدلي ماء للاستحمام فاغتسلت وتغديت مع السيد وولده ونمت وكان الحر قد اشتد فلم أنم الا قليلا . وقد سألني السيد متى تحب أن أذهب بك لزيارة سيدنا الامير ؟ فقلت له انني كنت محرما بالعمرة وقد أديت طوافها وسعيها وسأقصر شعري وأتحلل منها ، ولكن ثيابي مع الوالدة والرفاق فمتى وصلوا ألبس ونذهب ، ورغبت اليه في الذهاب الى الدار المعدة لنا لاجل انتظارهم فيها ، ولما جئت الدار وجدتها على الشارع العام بجوار باب الحرم الغربي الكبير المسمى بباب ابراهيم ، وقد تأخر وصول الجماعة الى قرب المغرب فلم نتشرف بتلك الزيارة الا ليلا ، وسأذكر لقاء الامير وشمائله في فصل آخر ،

﴿ الحالة الروحية عند أداء المناسك ﴾

وحكم التلبية والطواف والسعي

الحج عبادة روحية جسدية اجتماعية فهو تربية عالية للانسان منفردا ومجتمعا . أي تربية كاملة له ، فان الانسان مركب من جسد وروح ، وقد خلق ليعيش مجتمعا ، وفي الحج تقوية لجسده ولروحه ولروابطه الاجتماعية

أما كونه رياضة بدنية مقوية للجسد فظاهر في جميع المناسك فالاحرام ضرب من الرياضة والسفر كذلك قد وصفت لك أيها القارئ سفري من جدة الى مكة ، وعلمت بالاجمال ما قاسيت فيه من المشقة ، مع استكمال أسباب الراحة وقرب الشقة . وفي الطواف والسعي رياضة المشي التي يصف الاطباء نفعها ويوصون بها ، فدائرة المطاف حول الكعبة المعظمة لا يقل متوسطها عن مئة متر وأقل الطواف سبعة أشواط (مرات) ومن الناس من يطوف في اليوم والليلة أسابيع كثيرة متصلة ومنفصلة ، أما أنا فلم أستطع أن أزيد على سبعة أسابيع في أمثل الاوقات وأعدلها وهو وقت

السحر ، لما كنت عليه من ضعف البدن ، وكان رفيقي وأخي في الله الشيخ خالد يطوف ضعفي ذلك أو يزيد . واذا كان أقل الطواف وهو أسبوع عبارة عن مشي ثلاثة أرباع الكيلو فان السعي بين الصفا والمروة سبع مرات يقرب من مشي ٣ كيلو

وأما كونه مقويا للروابط الاجتماعية فلما فيه من التعارف والتآلف بين الشعوب المختلفة في أفضل بقاع الارض وفي أحسن الاحوال التي يكون عليها الانسان في هذه الحياة وهي التجرد من شواغل الدنيا والتوبة الى الله تعالى من جميع المعاصي والآثام

وأما كونه عبادة روحية مهذبة للنفس بتقوية شعور الايمان فهو المقصود بالذات الذي يجب ان يتحرى و ينوى و يلاحظ عند كل عمل من أعمال المناسك ، وهاك خلاصة وجيزة من العلم والاختبار في ذلك :

الحالة الروحية في طريق مكة . وتأثير التلبية

كنت قبل عودة المشيعين لي من جدة ألبي في السر قليلا ، وأتكلم معهم كثيرا ، فلما عادوا وولى النهار بأنسه وبهائه ، وأقبل الليل بوحشته وظلمائه ، هدأت المشاعر ، وقرت النواظر ، وخشعت السرائر ، وتزاحمت الخواطر ، فكان الغالب منها على الفكر والقلب ، ما يثيره تأثير الزمان والمكان وزي الاحرام في النفس ؛ فأما الزمان فهو شهر ذي الحجة الحرام ، وأما المكان فهو الطريق الى بيت الله الحرام ، وأما زي الاحرام ، فهو الذي كان يتزيا به ابراهيم خليل الله ، واسماعيل ذبيح الله ، ومحمد خاتم رسل الله ، وغيرهم من رسل الله الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وكل من حج البيت أو اعتمر ، من أصحابهم وأتباعهم هداة البشر ، فيالها من ذكرى لذي اللب ، يخشع لها القلب ، ويرجى بها رضوان الرب ، بما تثمره من قوة الايمان ، وطهارة الوجدان ، وخلوص السر والاعلان ، ولو لم يقترن بها ذكر لسان ، ولا عمل أركان ، فكيف اذا صحبها تكرار التلبية ، التي تزيد حرارتها تذكية ؛ واخلاصها تزكية : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لاشريك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

تأملت نفسي في تلك الليلة الليلاء ، والطريق الجرداء ، فرأيتني حاسرا حافيا في ازار ورداء ، غير مبال بما يكون من تأثير الهواء ، وهي حال لم أعهدها في سالف

الايام ، الا بين جُدُر الحمام ، وقد كان الهواء عند خروجنا من جدة حارا رطبا ، وكانت الدابة وهي في أول السير تنهب الارض نهبا ، وهذه ثلاثة أسباب ، يتفصد بها العرق من الإهاب ، ثم كنا كلما أوغلنا في السرى وتقلقلنا في البيداء ، نشعر بجفاف الجوّ وبرد الهواء ، حتى اضطررت الى اخراج سجادة صلاة كانت تحتي ، فوضعتها على عاتقي فلم تغن عني ، فأخرجت العباءة فتلفعت بها ، جاعلا لاجل الاحرام أعلاها أسفلها ، ولم أخف من أذى يصيبني من برد الليل ولا ضرر ، ولم يعرض لي سأم من طول السُّرى ولا ضجر ، فان مسني طائف من شيطان الوسوسة ، ذكرت الله تعالى فطردته بالتلبية : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك .

ويالله ما أحلى التلبية في تلك الفلوات ، وما أعظم الانس بها في حنادس الظلمات ، اذا خشعت بها الاصوات ، واستمطرت بها العبرات ، ومن دقائق حكم الشرع استحبابه رفع الصوت بها للرجال ، وتجديدها بتجدد المناظر واختلاف الاحوال ، فرفع الصوت بها ينفي الوسواس ، واذا كان في الليل يطرد النعاس ، وهو أجلب للخشوع ، وأذرف للدموع ، واستئنافها عند اختلاف الاحوال وتجدد المناظر ، أدعى الى دوام الذكر وعدم تفرق الخواطر ، فكنت كلما علونا نجدا ، أو هبطنا غورا ، أو نزلنا مكانا ، أو استأنفنا سرانا ، أو لقينا مشاة أو ركبانا ، جأرت الى الله تعالى : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك.

تأثير رؤية الكعبة والطواف بها

تلك التلبية تملأ قلب متدبرها إيمانا وتوحيدا ، وتجرده من الحظوظ والاهواء تجريدا ، وتعده لزيارة بيت الله والطواف ، وهو في أحسن حال وأتم استعداد ، حتى إذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة ، وراع القلب ما جللها من المهابة والعظمة ، تذكر أنها أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ، وخصه الله بالآيات البينات الباقية على بقاء الايام والسنين ، ورأى أمامها مقام ابراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما الصلاة والسلام ، ووجد نفسه حيث كان بدء دين الله الاسلام وحيث الختام ، فاذا دنا من مهبط الروح الامين ، ومطاف الملائكة والنبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين —

فلا تسل ثم عن الدموع كيف تنسكب ، وعن القلوب كيف تضطرب ، وعن الاعناق كيف تخضع ، وعن القلوب كيف تخشع ، ولا عن وجدان الايمان، كيف يتألق نوره في الجنان ، ويفيض بيانه على اللسان ، فيحركه بما يلهم من الثناء ، وما يشعر بالحاجة اليه من الدعاء ، وما يذكره أو يذكر به من المأثور، من مرفوع أو موقوف ، لا تسل أيها القارئ عن شيء من ذلك ، ولا عن غيره مما يكون عند أداء المناسك ، فمن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف

على هذه الحال تدخل الحرم المقدس ، طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس، فتأتي الركن الاسود، حيث العظمة والسؤدد، فتقول بسم الله الله أكبر، فيصغر في قلبك كل شؤون البشر ، ثم تبدأ الطواف، مع النية والاخلاص، بلمس الحجر وتقبيله ان قدرت، وبالاشارة اليه ان أنت عجزت، ولا بأس بأن تتذكر ماروي من انه رمز الى يمين الله التي لاتشبه الايمان ، وان استلامه وتقبيله في معنى تحية رب البيت ومبايعته على الايمان والاسلام والاحسان ، ومن أنه يشهد لمستلمه يوم القيامة كما تشهد الاعضاء — وبأن تقول بلسانك أوقلبك ،كما قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب من قبلك : اني أعلم انك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلك [1] لما قبلتك ، فتقبيلك ليس لذاتك الحجرية ، ولا لمنفعة فيك مرجوة أو مضرة مخشية ، ولا هذا الطواف الذي بك يبتدأ وعندك يختتم ، في معنى عبادة الوثن وتعظيم الصنم ، وانما هو خضوع لامر الله ، واقتداء برسل الله ، وتعظيم لما عظم الله ، وأنس بالقرب مما نسب الى الله ، يكمل به توحيد الله ، وتنمي به محبة الله ، فمن شأن المحبين الانس بكل ما ينسب الى المحبوب، ولاسيما اذا تعذر اللقاء وعز الوصول، وكم نظموا من الاشعار ،في الوقوف بالاطلال والطواف بالآثار

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ولما كان الرب العلي العظيم ، الجدير بأعلى مراتب الحب والتعظيم، لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار، ولا يراه عباده في هذه الدار ، كان من رحمته بالمؤمنين المحبين،

(١) عبارة عمر ولولا اني رأيت رسول الله (ص) يقبلك الخ رواه الجماعة كلهم

أن وضع هذا البيت للطائفين منهم والعاكفين ، ونسبه اليه ، ليكون تعظيمه تعظيما له ، فاذا مضيت في الطواف يمينا مصاحبا لهذه الذكرى ، جاعلا البيت من الجهة اليسرى ، فاشغله بالثناء على الله والدعاء لنفسك ، ولآلك وصحبك ، ولأمتك وأولي أمرك ، فاذا بلغت الركن اليماني ، وهو الجنوبي الغربي ، فاستلمه إن سهل عليك فانه على قواعد ابراهيم ، التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم ، ومتى انتهيت الى مقابله وهو الركن الاسود ، فقد أتممت من طوافك الشوط الاول ، وبقية الاشواط مثله في الشروط والآداب ، كالخشوع والتذكر وترك غير الضروري من الكلام ، وعدم التهافت على استلام الركن والحجر عند الزحام ، فاذا أتممت السبعة الاشواط ، فاختم دعاءك بين الركنين بقوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ثم صل ركعتين سنة الطواف ، والافضل ان تصليهما وراء المقام .

تأثير السعي وحكمته

السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة ، وليس له نفل فلا يفعل في كل منهما اكثر من مرة ، ويجب ان يكون بعد الطواف ، ولا يشترط فيه شروط الصلاة . فاذا جئت الصفا ، فاقرأ كما قرأ الرسول (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقل كما قال « نبدأ بما بدأ الله » ثم اصعد درجة أو أكثر واستقبل البيت الحرام ، فاذا رأيته فقل كما كان يقول عليه الصلاة والسلام : « لا إله الا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده » وادع الله تعالى مكررا ذلك ثلاث مرات .

وتذكر عند السعي أنه ذكرى سعي جدتنا السيدة هاجر عليها الرضوان ، أم أبينا اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وعلى أبيه ، وصفوة بنيه . ويالها من ذكرى لمجد العرب الكرام ، ومعجزات الاسلام ، مثبتة لحفظ الله تعالى لهذه الملة ، وعنايته بهذه الامة ، حفظتها العرب بالعمل المتواتر . وكم حفظت ما هو دونها من المآثر . وما يحفظ بالتمثيل والمحاكاة ، يكون أثبت مما يحفظ بالتلقين والروايات ، ولكنهم مزجوا مناسك الحنيفية ، بخرافات الوثنية ، فان كانوا قد وضعوا صنمين على الصفا والمروة ، فقد وضعوا ٣٦٠ صنما على الكعبة ، ثم طهر الله تعالى هذه البقاع بالاسلام ،

وأعادها الى ما كانت عليه في عهد ابراهيم واسماعيل عليهما وآلهما الصلاة والسلام ، روى البخاري وغيره من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان(١) خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهم شنة (٢) فيها ماء ، فجعلت أم اسمعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة — زاد في الرواية الاخرى فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ولا بها ماء ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء — ثم رجع ابراهيم الى أهله فاتبعته أم اسمعيل حتى لما بلغوا كَداء نادته من ورائه يا ابراهيم الى من تتركنا ؟ قال الى الله ، قالت رضيت بالله — وفي الرواية الاخرى أنها قالت اذاً لا يضيعنا ، وفيها أنه لما كان عند الثنية أي ثنية كداء حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدرّ لبنها على صبيها حتى لما فني الماء قالت لو ذهبتُ فنظرت لعلي أحس أحدا — زاد في الرواية الاخرى حتى اذا نفد ما في السقاء (أي الشنة) عطشت وعطش ابنها فجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه — (قال) فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا ، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل (تعني الصبي فذهبت فنظرت فاذا هو على حاله كأنه ينشغ (٣) للموت فلم تقرها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا ، فذهبت فصعدت

---

(١) أهله امرأته سارة غارت من هاجر لما ولدت وحملته على طردها مع طفلها اسماعيل . وفي الفصل ٢١ من سفر التكوين (التوراة) ان ابراهيم استاء من كلامها فأمره الله تعالى باخراجهما ووعده بأن يجعل اسماعيل ابنه أمة ، وفيه انه زودهما بخبز وقربة ماء واعطاها ابنها فتاهت في برية بئر سبع وانه لما نفد ماؤها وتوهمت أن يموت ولدها ، ناداها ملاك الرب وأراها الماء ووعدها بجعل ابنها أمة عظيمة . وان الله كان مع الغلام وانه سكن برية فاران . أقول وفاران من أسماء مكة كما في معجم البلدان وما يخالف هذه الرواية مما هنالك نعده تحريفاً . وقالوا ان ابراهيم جاء مكة على البراق

(٢) بفتح الشين والنون المشددة القربة اليابسة (٣) بوزن يفتح معناه يشهق من صدره

الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا — زاد في الرواية الاخرى قال ابن عباس قال النبي (ص) « فذلك سعي الناس بينهما » ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل فاذا هي بصوت فقالت أغث ان كان عندك خير فاذا جبريل — وفي الرواية الاخرى فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث، فاذا هي بالملك عند زمزم — قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الارض قال فانبثق الماء فدهشت أم اسمعيل (١) فجعلت تحفر (قال) فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « لو تركته كان الماء ظاهرا » — ولفظ الرواية الاخرى « يرحم الله ام اسماعيل لو تركت أو قال لولم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا معينا » أي جاريا على وجه الارض — (قال) فجعلت تشرب من الماء وتدر لبنها على صبيها قال فمر ناس من جُرهم ببطن الوادي فاذا هم بطير — وفي الرواية الاخرى : فرأوا طائرا عائفا أي يحوم على الماء — كأنهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير الا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هم بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا يا أم اسمعيل أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك — وزاد في الرواية الاخرى فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا نعم ثم قال مصرحا بالرفع « فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ». اه المراد منه ويليه ذكر عودة إبراهيم الى مكة لتفقد تركته أي ما تركه فيها وخبر بنائه البيت . وجرهم كقنفذ هو ابن قحطان ولكن رجح الحافظ ان قحطان نفسه من ذرية اسماعيل .

فهذا حديث صرح فيه ابن عباس بما يدل على رفعه كله وان لم يسنده الى النبي (ص) في أوله ، وفيه نص صريح في بيان حكمة جعل الصفا والمروة من شعائر الله التي يحيا شعور الايمان بها ، ووجوب التطوف بهما والسعي بينهما . فانه تمثيلي يذكر بتلك الواقعة التي هي من أكبر آيات الله ومظاهر قدرته ، وعنايته بتلك السيدة العظيمة القوية الايمان به والاتكال عليه والثقة به ، وبولدها الذي أراد سبحانه ان يباركه ويجعله أمة عظيمة ، كما هو منصوص في سفر التكوين من أسفار التوراة القديمة ، وأي شيء أجدر بأن تتذكره هنالك ونمثله كما وقع لاجل الاعتبار به ، واحياء شعور الايمان بتصوره ، من رضاء

(١) قوله فقال بعقبه هكذا أي فعل . وقوله ودهشت بفتح الهاء والدال ولأبي ذر بكسر الهاء

أم مرضع بأن تقيم مع طفلها منفردين بعيدين عن العمران، في واد غير ذي زرع ولا ماء ، لان الله تعالى قد أمر بذلك أبا ولدها الذي لقنها الايمان ، ورأت ما أيده الله به من الآيات البينات، وكيف نصره وحده على قومه المشركين الظالمين الاقوياء ؟

أليس تمثيل حال تلك الام جائعة ظامئة، والهة حائرة، تشاهد طفلها يتلوى ويتمرغ، من شدة الجوع والظمأ، ويضرب بنفسه الارض كالمصاب بالصرع، وينشغ أي يشهق من صدره للموت في ذلك القفر ، فيسوقها ذلك الالم الى الفرار من رؤيته بتلك الحال ، والسعي بين ذينك الجبلين القريبين من ذلك المكان ، تصعد هذه مرة وتلك أخرى، ضارعة الى الله راجية ان تجد من عنده غوثا، حتى اذا ما انتهت من الشوط السابع أرسل الله تعالى روحه الامين الذي يؤيد به الانبياء ، فأنبع لها ذلك الماء ، وجعل فيه الري والغذاء ، ثم ساق ذلك الركب من جرهم اليها ، وسخرهم للاقامة عندها ، ليتربى فيهم ويتذرأهم ولدها، ثم يجعله أصلا لهذه الامة الكريمة، ويجعل ذلك الوادي القاحل صدفة لدرة الكعبة البيضة، اذ جعله بلدا يحفظ بيته الذي جعله مثابة للناس وامنا، وجعل قلوب الناس تهوي اليه من جميع الاقطار إيمانا ونسكا، ورزق أهله من الثمرات ، وسخرهم البشر في كل زمان، ألسنا نرى في هذا العام معجزة من معجزات هذا التسخير؟ بلى وقد ابتلى في هذا العام وما قبله الامم الغنية القوية ، المتصرفة في البلاد العامرة الخصبة الغنية، بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، بهذه الحرب الاوربية التي تقطعت بها الروابط وقلت المواصلات ، واقتضى دخول الدولة العثمانية في غمراتها ، ان تضرب الدول المحاربة لها حجرا بحريا على جميع سواحلها ، فكان الضيق على سكان حرم الله تعالى أليما شديدا ، حتى اذا ما أوشك أن يفتك بهم الموت جوعا ، سخر الله تعالى لهم تلك الدول تحمل اليهم الاقوات والاموال ، وتنقل اليهم وفود الحجاج ، وأراهم بهذه الاغاثة العامة ، مثالا لتلك الاغاثة الخاصة ، أعني اغاثة هاجر واسماعيل ، استجابة لدعاء الخليل « فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات » وكثيرا ما ذكرت الناس بذلك ، في أثناء أداء المناسك ،

فمن سعى بين الصفا والمروة عالما بما ذكر متذكرا له معتبرا به ، فانه يشعر في قلبه بنماء الايمان بالله وبرسل الله، ويفهم سر قوله تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله)